

أسرة تيمبو لروچيه مارتان دى جار

بقلم : الأستاذ أحمد رشاد

وأخيرا عثر عليه مراسل صحيفة لينوفيل
لتحرير Les nouvelles littéraires الأسبوعية
الذى ظل يراقب المنزل عن كتب دون ملل ،
فقال له وقد استجمع شجاعته :

- يا أستاذى ! هل تسمح لى ببعض أسئلة ؟
فأجابه فى استياء :

- متأسف ! مستحيل ! ... مستحيل تماما !
فسأله المحرر بصوت ملؤه الرجاء :

- طالما أن الأمر كذلك ، فهل أستطيع على
الأقل أن أذكر انى قابلتك وكان السرور باديا
عليك ؟

- نعم ، قل ما شئت ! بل تستطيع أن تقول
انك فزت بحظ نادر هو التأمل فى رجل سعيد
للغاية ! فأنا لا أخفى تأثرى الشديد .

وكم أنا فخور بالتقدير الذى نلتته ... ولا
تتكلم على فيما عدا ذلك يا سيدى العزيز . وانى
أصور على كل حال - بحق أو بغير حق - ان
الأكاديمية السويدية لم ترد بمنحى هذا الشرف ،
توزيع عمل غير كامل فحسب ، وانما شجعت

عندما هل يوم ١٥ نوفمبر سنة ١٩٣٧ ،
اتصل أندريه جيد André Gide تليفونيا
بروجيه مارتان دى جار Roger Martin du Gard

لينزف اليه فوزه بجائزة نوبل Nobel قبل
أن تنشر الجرائد نبأها ، ولم يكن قد مضى على
نيله جائزة « مدينة باريس » أكثر من عشرين
يوما . فما كان من مارتان دى جار الا أن غلق
حقائبه على عجل وترك لوأذا شقيقته الصغيرة فى
نيس (Nice) بعد أن أفهم البواب ان
« بعض أشخاص سيسألون عنه بالحاح ، فعليه أن
يخبرهم بأنه غير موجود » .

ومنحت الاذاعة جائزة قدرها ١٠.٠٠٠ فرنك
لحديث تجريبه مع رجل الساعة لمدة ثلاثة دقائق ،
ولكن الأديب رفض الظهور حتى ظن البعض أنه
قد خطف أو وقع له حادث .

هل تعلمون أين كان مارتان دى جار خلال
فترة البحث عنه ؟ انه عاد الى شقيقته فى منتصف
الليل على أطراف أصابعه . وترك النوافذ مغلقة
واقصر فى طعامه على الجبن والبيض الذى
يطهيه بنفسه .

مؤلفا يعيش بعيدا عن ضوضاء العالم ، أوضح أكثر من مرة انه يكره الكلام عنه • وعلى ذلك أكون مخلفا للتقدير الذى نلت ان انتهزت هذه الفرصة للخروج من عزلتى وعمدت الى الظهور • ثم علت شفتى مؤلف « أسرة تيبو » Thibault بسمة بريئة ، عاد بعدها الى وحدته •

إذا كنا قد سردنا هذه القصة الواقعية ، فلأنها تظهر أخلاق مارتان دى جار بوضوح ، كما يظهر السلوك الذى التزمه طيلة حياته كأديب نزيه ، متواضع ، غير مغرض •

شخصية روجيه مارتان دى جار :

كان مارتان دى جار منظويا على نفسه ، بعيداً عن أية مدرسة أو مجمع أدبى ، يكره التعصب والتطرف فى الوطنية بقدر كرهه للمعادن غير الأصلية والحكم بدون ترو • وكان يحذر السياسة والذين يتخذونها وسيلة لخدمة مصالحهم الخاصة ، ويتهرب من الأحاديث الصحفية ويمقت الدعاية ولا يتكلم فيما ليس يعنيه ولا يحب الخيلاء ويتبعد عن الشهرة وعن مظاهر التكريم والتشريف • كان يعتبر من الأمور غير اللائقة ، الدفاع عن كتبه أو السعى فى نشرها ورواجها ، لم يشترك فى لجنة تحكيم أدبية ، ولم يلق محاضرة ، ولم يساهم فى أى صحيفة أو مجلة ، ولا فى أية مداولة أو أى جدال •

ولا يرجع هذا الى كبرياء فيه أو أنانية أو كراهية للناس أو احتقار لشأنهم ، وإنما هو نوع من الرزانة والحياء الطبيعى فيه يدفعه الى ابعاد المتطفلين عن حياته الخاصة وحياته الأدبية •

وإذا كان يكره الظهور ويفضل الريف على

المدينة والهدوء على الفوضى والغزلة على ثثرة الناس والتأمل على المهارات ، فلم يمنعه هذا من اختيار نخبة من الأصدقاء الأوفياء يحدثهم فى حرية تامة ، يقدرون ظرفه ومجاملته بقدر صراحته فى الادلاء بآرائه ؛ ويقول عنه مارسيل جوهاندو Marcel Jouhandeau « كنا نشعر ونحن معه بالثقة والطمأنينة والدفء كما لو كنا فى دار أبل انسان فى وقتنا هذا وأكثرهم صراحة » •

وليس هو بالرجل المتحمس أكثر من اللازم ، ولا بالذى يحاول جذب الأنظار اليه بطلاقة لسانه ، أو يستهوى القلوب بفصاحته ، أو يزكى نار النقش ، أو ينزلق فى المتناقضات ليهوى محدثه •

وإذا صادف وساهم فى حفل أدبى ، فلا يخرج عن كونه مستمعا صاغيا ، يقظا ، لا خطيبا مولعا بالمباريات الأدبية ، متعطشا لفرض وجهة نظره على مستمعيه •

انه رجل يكره التسرع فى الحكم ويمقت المبالغة ، يميل الى تدوين أفكاره وما يشغل باله على الورق ولا يضيق بخير ما يجول فى ذهنه على مؤلفاته • ويصرح فى ذلك قائلا : « كل ما أريد قوله أسرده فى «أسرة تيبو» • انه الرجل الذى لم ينس انه درس فى «مدرسة الوثائق» ، لذلك نراه

Ecole des Chartas يكتب المذكرات ويرتبها فى بطاقات وملفات فى متناول يده • وفى رأيه أن أى نص لا يكون صالحا للنشر الا اذا قرأه ونقحه أربع أو خمس مرات • انه الرجل الذى يعد لروايته دائما منهجا •

ويهمن كمال الصنعة وحب الدقة على مؤلفاته حيث يهتم بانتقاء الألفاظ وقوة البناء في التركيب ، وهو يحرك مشاعرنا ، لا عن طريق الأهواء العنيفة وانما بملاحظاتة الثيرة ونقدته المحايد الفطن . ومن نصائحه للكتاب منذ بدء اشتغاله بالأدب ، قوله : « اشتغلوا بالأدب ان أردتم ، ولكن لا تتكلموا عنه ... الا بعد رسوخ أقدامكم فيه ولمدة طويلة » .

انه لا يشترك في الاجتماعات الأدبية ولا في الاحتفالات ولا في المسابقات . وهو لا ينتقى ابطاله ولا يبحث عنهم فيها ، بل يجدهم خلال سيره في الطريق وتردده على المقاهي وفي نزواته الخلوية في القرى ، حيث يهتم بكل تجربة يمر بها البشر وبكل حادث صغير من أحداث الحياة اليومية المختلط بها ، لأنه على كل حال ليس بالرجل الذي يكره المجتمع ولا بالناسك القابع في صومعته .

ينتمي روجيه مارتان دى جار الى أسرة بورجوازية ، ولكنه ليس بالبورجوازي الثرى ، بل هو كاتب وصل الى قمة الأدب بجده واجتهاده ولن يفكر يوما من الأيام في الدفاع عن البورجوازية ، ولن يفضل طبقة على أخرى ، ولا تسترعى انتباهه طريقة هذا أو ذاك في الحياة ، وانما طريقة تصرف المرء ازاء نفسه ومعاملته للآخرين مهما كان الوسط الذى ينتمى اليه .

وهو فى الواقع ليس بالكاتب اليسارى ولا بالكاتب اليميني وان كانت مؤلفاته تحمل الصبغة الثورية . ويجدر التنويه هنا بأنه لا يعتقد فى فعالية الثورة العنيفة ، فعادة عند بناء مجتمع جديد لا يتغير « العنصر الأساسى » الا وهو « الطبيعة البشرية » . وليس معنى هذا انه يشك فى الجراءة أو البطولة ، بل بالعكس ، فان « مؤلفاته

تبعث فى النفس الشجاعة والايمان القوى ، ، كما يقول عنه صديقه جان شلومبرجيه Jean Schlumberger . وكل ما يهمه

هو التحذير من الآراء الوهمية والعمل دون روية . وهو لا يضع قلمه فى خدمة حزب معين بل فى خدمة ضميره الحر المجرد من كل ضغط أو انجياز ليدافع عن قضية يعتقد أنها عادلة : فاتباع التوجيهات الملزمة تؤدى فى نظره الى اخضاع قلمه للدعاية التى لا علاقة لها بالأدب ، فضلا عن انها لا ترفع من شأن الكاتب .

انه محب للانسانية قبل كل شئ ويكره ان يكون سجين فكرة أو أسير نظام يقدر ما يتعد عن التعصب والحزبية والانقيادية ، جاعلا ضميره رائده فى جميع أمورهِ حتى انه « يمتنى تضافر الجهود الهادفة واتحاد العقول والأفئدة من أجل تحقيق التضامن الاجتماعى والتقدم فى ميدان العلوم والمعارف » .

والى جنب هذا الرجل الانسانى المحب للمنطق ولجمع الوثائق ودراستها ، يظهر القروى المذهب الذى يميل الى الدعابة والنكتة والفكاهة ، والذى يترك العنان لقريحته الوقادة وينتقى الكلمات الدسمة التى تشبع الاذان برنينها . وطباعه هذه دفعته الى وصف الحياة فى قرية فرنسية كما نرى ذلك فى Vieille France والى كتابة

روايات هزلية عن الفلاحين كما نرى ذلك فى « المريضة بالاستقاء » و « وصية عم لولو » Le testament du Père Teleu

ويتوق بكل قواه الى « أن يصف الطبيعة بأمانة وصدق » وأن يكون شاهد العيان لزمانه ، وأن يعطى للأحداث المعاصرة جاذبية خاصة بعد ترك مهلة على مرورها ليحسن الحكم عليها ، تجنباً

أفكارنا حتى ليخيل إلينا أنه أخذهم من المجتمع نفسه • وفي جان باروا Jean Barois
كما في الجزء السابع من « أسرة تيبو » تتعذر
التفرقة بين الأشخاص الذين ساهموا فعلا في
الأحداث التاريخية التي يرويها الكاتب وبين
الأشخاص الوهميين الذين يتدعهم • أما قدرة
مارتان دى جار ، فقد بلغت حداً جعل أشخاصه
الخياليين في مصاف الشخصيات الحقيقية ، فتراهم
يتآزرون ويكافحون معاً للقضاء على مؤمرات
المزورين والمحرضين على الحرب •

ان مارتان دى جار صانع دقيق، دائم الانكباب
على عمله ، لا يسأم صقله المرة تلو المرة ، غالباً
ما يتشكك في امكانياته ، غير متساهل مع نفسه ،
لا يدعى الوصول الى الكمال ، ولكنه يصر على
أن يكون اتاجه متيناً في تناسق وترابط • ومع
كل ، فلا نلاحظ في عمله التقن الجهد أو التصنع ،
والدليل على ذلك أن أسلوبه أقل الأساليب
زخرفة ، وموضوع مؤلفاته أكثر الموضوعات
اجتذاً واستهواءً • ويقول جورج دوهايل :
« ان روجيه مارتان دى جار ينكب على فنه بعناية
وشغف حتى ان الانسان لا يستطيع رؤيته وهو
يعمل الا ويعتوره التأثير والاحترام » •

ولا غرابة في تشدده على نفسه اذ نراه يقضى
السنين الطويلة في تأليف جزء من « أسرة تيبو » ،
ثم يمزقه لأنه يعتبره غير معبر عن فكرته بأمانة •
ونراه أيضاً يرجو نأشره باعدام كتاب من كتبه
بعد طبعه لأنه لا يستحق ، في نظره ، أن يأخذ
مكانه بجانب مجموعة مؤلفاته • ويصرح في هذا
الصدد قائلًا : « ان كل ما كتبه انما هو ثمرة كدر
مضن » •

وبعد ظهور الجزء الثالث من « أسرة تيبو » في

للمتناقضات والمبالغات التي تتسم بها ساعة وقوعها
وأنكب على هذه المهمة دون أن يفكر في أن
يكون في يوم من الأيام رائداً فكرياً أو له أتباع
يلتفون حوله •

وروجيه ما رتان دى جار لا يحكى لنا في أهم
رواياته قصة بقدر ما يخلق أو يتدع عالماً من
من الناس • ولا نجد فعلاً في كتاباته موضوعاً
محدوداً يولد وينمو ويتهى ، وانما نجد أشخاصاً
مدروسين محللين من واقع الأحداث التي عاشوها
ومن خلال المجتمع المختلطين به • وعند كتابته
« أسرة تيبو » ، لم يذكر مختلف المراحل التي
يجتازها بطل ينعم بمزايا خارقة تجعل كل شيء
يدور حوله بانتظام ، كما فعل « رومان رولان »
Romain Rolland في قصته المعروفة

باسم جان كريستوف Jean Christophe
ولكنه يذكر لنا أحداثاً عائلية على نسق « جورج
دوهايل » Georges Duhamel في أسرة
باسكيه Chronique des Pasquierf

صحیح أن « اميل زولا » Emile Zola
وصف لنا في روجون ماكار Rougon Macquart

حياة اسره ولكن طريقته تختلف كل الاختلاف
عن طريقة مارتان دى جار • فبينما هذا الأخير
يكتب رواية مطولة تتداخل أجزاءها في بعضها
البعض موضحاً تصرف وآمال أخوين في مرحلة
من حياتهما ، يصف زولا في رايته الأدبية أوساطاً
اجتماعية مختلفة (سياسية ومالية وعسكرية
وعملية : قروية الخ ..) ، وكل جزء من
« روجون » له نهايته الخاصة به •

ان الرواية في نظر مارتان دى جار تصبح
« وثيقة » كفيفة بأن تجعل القارئ يشعر بأنها
تحدثه عن أشياء رآها الكاتب وعاش حوادثها •
وتدب الحياة في ابطاله الى حد السيطرة على

سنة ١٩٢٣ ، مكث خمس سنوات ليخرج لنا الأجر الأخرى من الرواية . ولا دخل في هذا ، للكسل أو النصب أو الاعياء ، وانما لضميره وإخلاصه لعمله ازاء أشخاصه حتى يكونوا دائما في حيوية وحركة أمام القارىء . ويعترف لصديقه « لوى مارتان شوفيه » Louis Martin Chauffier الذى سألته عن سبب طوال فترة هذا التوقف ، فى رده عليه بتاريخ ١٤ ديسمبر سنة ١٩٢٦ : « اتضح لى ، لعدة أسابيع ، أن مهمتى شاقة الى حد عدم قدرتى على التغلب عليها . انى رأيت فيما يتعلق بأدوار أشخاصى أن أكون أكثر عمقا والافلا فائدة من الرواية . لقد تخطيت النقطة التى ينهى عندها الكاتب عادة عرض الأشخاص الذين اختارهم ويقدم شخصيات جديدة . دارى من الواجب على الاحتفاظ بأشخاص روايتى على المسرح مع التعمق فى دراسة الناحية السيكولوجية فيهم .

ان هذه العبارة تحمل فى طياتها درسا كبيرا وخطيرا للكثير من الأدباء الناشئين الذين سيهمهم الظهور السريع ، مفضلين نجاحا وقتيا على صيت يقوم على أساس قوى دائم . ليت هذا الصنف من الكتاب « يعالج نفسه ، فى بدء حياته الأدبية ، من يقينه بجودة عمله » .

كان روجيه مارتان دى جار يخشى الشيخوخة وما يتبعها من نقص فى مواهبه الخلاقة المبدعة . وهذا ما نراه واضحا فى مذكراته بتاريخ ٣٠ ديسمبر سنة ١٩٤٣ بمناسبة اشتغاله منذ مدة فى رواية لا تقل ضخامة عن « أسرة تيبو » اختار لها اسم : ذكريات الكولونيل مومور Scuenirs du colonel Maumort

ولم يستطع اكمالها : « عندما يكشف الكاتب المسن ان طموحه يفوق امكانياته بمراحل ،

تتأبه فى قرارة نفسه مأساة وان بدت غريبة نوعا ما . وانى أتحمّل منذ سنتين الآم الجرح الذى تركته عندى هذه المأساة التى لا علاج لها » .

كنت فكرة الموت تسيطر عليه منذ اشتغاله بالأدب ، وحرص منه على انقاذ ما يمكن انقاذه ، فقد عمد بعد الحرب العالمية الاولى ، الى تدوين مذكراته يوما بيوم ، وأغلبها لم يطبع حتى الآن . ولقد اودع فى المكتبة الاهلية ، فى أخريات حياته ، مختلف الوثائق مع الاشارة بعناية الى الاجراءات اللازمة لنشرها بعد موته .

وتستند كتابته على اسس متينة يجدر التنويه بها وتعزيزها بأقوال ادبنا نفسه . وأول هذه الأسس هى الصراحة : « الصراحة ! الصراحة ! فى كل شىء وفى كل وقت ! آه ! كم هذه الفكرة تلازمى دائما بقسوة » . وثانيها ، عزة النفس : « علينا اختيار الفضائل التى تزيد فى قدرنا ، وأجلها ، عزة النفس . فلا كبرياء ولا تواضع ، على الانسان ان يعتقد فى قوته ليصبح قويا » . وثالثها ، الإرادة : « عليك بتنمية ارادتك ، فاذا كنت جديرا بتحقيق ما تريده ، فلن تقف فى سبيلك المستحيلات » . ورابعها ، استقلال الفكر : « قاوم ! ارفض الشعارات ! لا تكن تابعا . . . امامك اكثر من اغراء : اغراء التخلص من ثقل شخصيتك ! اغراء الاندماج فى حركات جماعية ! اغراء الاعتقاد لانه يريح النفس ، يريحها جدا . فهل تعرف كيف تقاوم هذه الالوان من الاغراء ؟ ، وخامسها ، الثقة بالنفس : « ولدت مع الثقة بنفسى والمجهود اليومى والامل فى تقدم البشرية . واستطعت موازنة كل هذا بسهولة . ومصيرى يشبه شجرة التفاح النابتة فى ارض خصبة ، تؤتى اكلها بانتظام . . . » ويضيف قائلا : « من حقنا جميعا ان نكون انفسنا كما نريد دون ان

يمنعنا من ذلك اى امرىء باسم مبادئه الشخصية . .

لا يقبل مارتان دى جار للفرد السير فى ركب الجماعة ، وبمعنى آخر لا يريد خضوع الاقلية للاغلبية . وذلك لان من واجب كل امرىء ان يكون قويا وان يتطلع الى الكمال . وان تحرر الفرد من قبضة المجتمع ومن قيود التقاليد البالية ، واطهار نفسه على حقيقتها ، وتنمية الشعور الانسانى فيه باتصاله بالناس ، هى الصفات التى يتمتع بها بطل روايات روحية مارتان دى جار . وهو ينادى ، مثل « رومان رولان » الذى يتفق معه فى اكثر من رأى ، الى « كفاح الضمير الحر ضد الجماهير » .

تقابل مارتان دى جار مع « اندريه جيد » لأول مرة فى نوفمبر سنة ١٩١٣ . وتوطدت الصداقة بينهما سريعا وكان كل منهما يستريح فى تبادل مشاريعه الادبية مع الآخر . وعندما كان جيد يستعد لكتابة قصة المزورين Les faux monnayeurs ، دار حوار

بينهما ، اثبت مارتان دى جار فى كتيب ظهر سنة ١٩٥١ غداة وفاة صديقه : « انه يأمل كتابة رواية ضخمة مليئة بالاحداث ، لايزال مشروعا فى المهد . اما فيما يتعلق بهذا المشروع ، فقد أرانى الى اى حد تختلف افكارنا بالنسبة للعمل الروائى والى أية درجة تتعارض . وحتى يفهمنى ذلك ، اخذ ورقة بيضاء وخط فيها سطرا اقليبا مستقيما ، ثم امسك ببطارية وارسل نورها ببطء على هذا السطر من اوله الى آخره ، قائلا :

- هذا هو كتابك عن « باروا » ، هذا هو كتابك عن « اسرة تيبو » . انك تتخيل تاريخ

اسرة ، ثم ترسل ضوءك عليها بامانة . . ولكنى سأريك كيف سأكتب « المزورين » . ثم قلب الورقة ورسم عليها نصف دائرة ووضع البطارية فى منتصفها واخذ يحرك ضوءها على ذلك المنحنى قائلا :

- افهمت يا صديقى العزيز ؟ انهما فكرتان فى فهم الفن الروائى . فانت تعرض الاحداث حسب تسلسل تاريخها كما يفعل المؤرخ . انك لا تقص ابدا حادثا فى الماضى من خلال حادث فى الحاضر ، او من خلال شخص ليس له دور معين فى ذلك الحادث . وكتاباتك خالية من المدارة والمفاجأة والتصرف فى الاحداث ، وتمتاز بالايضاح الشامل والنقاء وبعدها عن المغالاة . انك تحرم نفسك من موارد ثمينة ! هناك علم رفيع يتعلق بالاضواء ، ولاشك ان توزيع هذه الاضواء ، بمختلف الطرق ، فن قائم بنفسه .

فقلت له : هل هو فن ام صناعة ؟

فرد قائلا : « سمه كما تشاء ، يا عزيزى . فانت تسير حسب طبيعتك . انك تميل الى تولستوى ، اما انا فمن جانب دوستوفسكى . لاحظ انى معجب جدا بتولستوى ، فهو شاهد ممتاز للاحداث ولكنى اعترف انه لا يكفينى هذا فيه . فبحته يحمل دائما الطابع العام للكائنات ، وصيغة انسانية وما هو موجود عادة فى نفس كل امرىء . انه يريدنى ما اعرفه او ما كنت استطيع اكتشافه لو واثبت شيئا من الانتباه . وهو لا يتحفنا باية مفاجأة . . . اما دوستوفسكى فبالعكس ، يدهشنى دائما ويكشف لى عما هو جديد على ، عما لا يجول فى خاطرى ، عما لا يقع تحت بصرى ! » .

ويذكر روجيه مارتان دى جار فى كتيبه هذا حكمين « جيد ، عليه ، الاول بتاريخ ٣ يناير سنة ١٩٢٢ : « الغداء عند روجيه ، وبعد تناوله مباشرة ، انتقدت روايته او بالاحرى طريقته فى الكتابة . يبدو عليه القلق الشديد والرغبة فى تحصيل بعض صفات تخالف طبيعته ، كالخوارق والمعضلات والغرائب ، وكل ما يشرك شيطان الادب فى عمل الفنان . وظللنا نتكلم اكثر من ساعة عن تقديم الاحداث للقارئ بطريقة غير مباشرة » . والحكم الثانى بتاريخ ٢ اكتوبر سنة ١٩٣٦ : « ان روجيه ، بصفته روائيا يستبعد ، من اية مشكلة سيكولوجية ، ما يراه خارجا عن المؤلف . ومن هنا تظهر المسحة الطبيعية على بعض اشخاصه . ويتساءل دائما : « ما الذى يحدث غالبا فى هذه الحالة او تلك ؟ » ان النادر لا يسترعى انباهه الا لارجاع هذه الحالة الى مفهوم عام . ولكنى على عكسه يهمنى النادر لاكتشاف هذا المفهوم العام حيث انه يلفت نظرى بما اعتقد فيه من فائدة لى . »

الا يكفى هذا لى نقف على امكانيات روجيه مارتان دى جار ازاء الطريقة التى يتبعها فى كتابة رواياته ؟ نظن انه يظهر تواضعا اكثر من اللازم ، كما يتضح لنا من حكمه على نفسه الى جانب حكم « جيد » القاسى عليه : « انى اشعر بان اعمالى الروائية لا تزال بدائية . وان ما اسميه بالايجابية والامانة نحو الواقع وبساطة التعبير وسلسلة الاسلوب ، ليس الا ضعفا فى التأليف . »

بقى القول ان هذه الايجابية المتشددة - والتى تجعل من السهل على الانسان معرفة اى شخصية من شخصياته تعبر عن ارائه ومشاعره بدقة - تدفعه الى الثنائية او الازدواجية التى نشهدها فى مختلف رواياته : ففي الصيرورة Devenir

مثلا ، لا ندرى أهو فى جانب اندريه ماتيريل ذلك البورجوازي ، فاقد الارادة ، الذى يحلم بان يصبح روائيا مشهورا ولكنه يضع حياته سدى ، ام فى جانب برنار جروديدييه ، خريج مدرسة الوثائق ، المنظم ، المحب للعزلة ؟ وفى « جان باروا » ، هل هو فى صف صاحب هذا الاسم ، وهو رجل مفامر ، مناضل ، لا حد لرغباته ، ام فى صف مارك ايل لوس ، عضو المجمع العلمى والاستاذ بكوليج دى فرانس ، الذكى ، المتبصر ، الرزين ؟ وفى « اسرة تيبو » ، هل هو مع جاك الفوضوى ، الكاره للمجتمع الذى ولد فيه ، الطامع فى مثل عليا تفوق قدرته ، أم هو مع انطوان شقيقه ، الطيب الرتيب المحب لمهنته ، المقتنع بان ادائه لواجه يعتبر مساهمة منه فى تخفيف آلام الناس وبؤسهم ؟

ان روجيه مارتان دى جار ، فى الواقع ، يبين فى مؤلفاته تضارب طبيعته ، كما يصرح لنا بذلك : « اكتسبت من جهة ، غريزة الاستقلال والهروب من النفس والتمرد ورفض كل ماهو رتيب ، ورثت من جهة أخرى ، غريزة النظام والرزانة ورفض التطرف . »

ونضيف الى ذلك ، اننا نجد عادة فى كتبه تعارضا بين العقيدة الدينية والمنطق العلمى وبين الخوف من اختلال النظام ومستلزمات العدالة ، كما هو الحال فى « جان باروا » ، وتعارضا بين الدفاع عن السلام والالتجاء الى العنف ، كما نلاحظ ذلك فى جزء كبير من « أسرة تيبو » .

حياته ومؤلفاته :

ولد روجيه مارتان دى جار فى باديس يوم ٢٣ مارس سنة ١٨٨١ من اسرة بورجوازية .

وكان والده موظفاً بمحكمة نهر السين ، ووالدته ابنة صراف . ويقول روجيه : « ان حاجتى الى الكتابة كانت تلازمى طيلة حياتى ، وأعتقد ان هذه الحالة تبلورت يوماً ما بما تركته فى نفسى روايات صديقى «جان» الدرامية » . وما هذا الصديق الذى يكبره بسنتين الاجارة فى الريف وقد عُرف بميله الكبير للتراجيديات وكان روجيه يعجب به ويحلم بأن يكون مثله .

وفى سنة ١٨٩٢ ، التحق بمدرسة كوندورسيه Condorcet ، ثم بمدرسة فينيلون Fénélon التى كان يديرها الأب هير Hébert وهو رجل يتمتع بثقافة واسعة . ولكن تلميذه كان متكاسلاً بقدر ما هو مطيع ، لا يحب الا التاريخ والانشاء ومع ذلك فقد اهتم استاذ به وارشده الى القراءات المفيدة .

وفى أوائل سنة ١٨٩٦ ، استأنف دراسته فى منزل عالم فاضل كان يعامله كأحد افراد أسرته . وسر الشاب من وجوده فى هذا الوسط الادبى والفنى ، ويقول فى ذلك : « كنت مقتباً من هذا الجو الجديد على ، المشبع بالادب » .

وبجانب اعجابه وقراءته «لرولا» و «ميربو» ، اطلع على مؤلفات «جوجول» و «دوستوفسكى» و «توماس هاردى» و «سلما لاجرلوف» و «جورج اليوت» . هكذا زاد فى معلوماته واكتشف مواهبه . ولم ينس فضل ذلك المربي الذى « علمه كيف يفهم ويتذوق جمال الادب بالاجتهاد الفردى والصبر ، وكيف ان الكاتب يجب ان يكون بناء حيث ان عمله يشبه عمل مهندس المباني من عدة اوجه » .

وفى اكتوبر سنة ١٨٩٦ ، دخل روجيه ليسيه جنسون دى سالى Janson-de-Sailly حيث

نال البكالوريا . ولم يقطع صلته طيلة هذه المدة بالاب « هير » الذى نصحه بقراءة « الحرب والسلام » ، رائعة الروائى الروسى التى نالت أعجابه . فكتب عنها فى مذكراته : « ان اكتشافى لتولستوى يعد من الاحداث التى تركت فى نفسى اثراً بليغاً وانا فى سن الشباب ، فهو الذى كان له الفضل الكبير على مستقبلى ككاتب . كنت أحاول انكتابة منذ سن الصبا ، ولكن دون ان تكون لدى الفكرة الواضحة لما انوى عمله . ان تكرار قراءتى « للحرب والسلام » بحماس ، دفعنى نحو التأليف الروائى ، وبالاحرى نحو الرواية المطولة المتعددة الاشخاص والفصول » . ويقول مارتان دى جار أيضاً :

« انى اعتبر تولستوى استاذ الاساتذة لمن يريد ان يصبح روائياً وقد يتأثر الشباب به أو لا يتأثر ، ولكن مرهف الحس يتأثر به ويستفيد . ولا خوف من السير على «منواله» ، فان السجية الطبيعية والبساطة المتناهية ، بل اقول ان ابتذال الطرق التى يستخدمها ، نجدها فى تناول قلم كل روائى ناشئ . فلم يتبع طريقة فنية محددة تعين الاديب المستجد على تقليدها . فاشخاص الرواية الذين يقدمهم لنا يشبهون فى كل شيء ما نقابله فى الحياة ، ولكنه يعرف كيف يكتشف فى كل منهم الطبيعة الخفية المستترة تحت الظواهر والتى لا نستطيع رؤيتها بدونه . واذا كان للروائى الناشئ موهبة الملاحظة ، فان تولستوى يعلمه كيف يرى بعمق » .

تتلمذ روجيه مارتان دى جار على الاديب الروسى الكبير وتأثر به دون شك عند كتابة « اسرة تيو » . صحيح انه لم يقتبس «فنه» أو «طريقته» ، ولم يدع الوصول الى قدرته ومهارته

ولكنه ، كما يقول عنه صديقه اندريه موروا André Maurois « اكثر الروائيين الفرنسيين شبيها بتولستوى في رواياته » .

وبعد أن أتم مارتان دى جار علومه الثانوية ، دخل السوربون لئيل اجازة الليسانس في الآداب ، ولكنه سرعان ما ترك هذه الدراسة واستعد لمسابقة دخول مدرسة الوثائق . وقبل بها في نوفمبر سنة ١٨٩٩ وركز اهتمامه عدة سنين على تاريخ القرن الاوسط وفنه المعماري . وبلغ شغفه بالتاريخ حدا جعله - عندما أصبح روائيا - لا يستسيغ شخصية في رواية منزلة عن المجتمع او عن الاحداث التي وقعت فيه .

وتعلم في مدرسة الوثائق ماهية الضمير العلمى ومستلزمات شرف المهنة من جهة ، واكتسب من جهة اخرى طريقة العمل وتنظيم افكاره . وسوف يلتزم بهما بدقة عند كتابته لواحدة من اضخم رواياته واكثرها تنوعا ومتانة في عالم الادب الاوربي .

وفي ديسمبر سنة ١٩٠٥ ، حصل على دبلوم علم الوثائق بعد ان قدم رسالة عن آثار دير دى جومير Les ruines de l'Abbaye de Jumirees وبعد سنة من تخرجه تزوج ابنة محام من باريس ، سافر معها الى شمال افريقيا ، ثم عاد ليستقر في العاصمة الفرنسية . وشعر بميل الى علم النفس ، فراح يتابع الدروس التي كان يلقيها بعض كبار الاختصاصيين في هذه المادة .

ولكن حبه للأدب بدأ يظهر ، ولم يساعده خجله وتواضعه واحتجابه على شق طريقه في هذا المجال وبناء مكانة له فيه . وبعد ان الف رواية اسمها « حياة قديس » Une vie de sain وهي

تحليل لاخلاق راهب ، لم يرتح لها وتركها قبل اكمالها ليكتب رواية اخرى اطلق عليها اسم « الصيرورة » طبعها في خريف سنة ١٩٠٨ على نفقته . ورغم انه اعتبرها عملا بسيطا لاديب مبتدى ، و « رواية غير ذات قيمة » من انتاج سن الشباب ، فقد اشتهرت على صفات لا تنكر : نجد فيها ملامح « جاك تيو » الشخص الرئيسى للرائعة الادبية التي سيكتبها بعد ذلك باثني عشر عاما ، وهجوما على البورجوازية ، وشابا من خريجي مدرسة الوثائق يزوده الكاتب ببعض تجاربه وافكاره عن الحياة .

ولقد شجعت رواية « الصيرورة » على كتابة رواية ثالثة : « ماريز » Marise وهي تحليل لشخصية نسائية ، ولكنه لم يكملها . ومع ذلك فقد اختار منها فصلا تعهده بالتهذيب والتعديل ليجعل منه قصة نشرها في سنة ١٩١٠ بعنوان : « واحدة منا » L'une de nous ولم تلق رواجاً ، فصرف مارتان دى جار النظر عنها فيما بعد واستبعدا من مؤلفاته . هكذا نجد أنفسنا امام كاتب لا يحاول اخفاء قلقه وتعثره لانه يريد ان يقدم ، تقديرًا منه للقراء ، ما يعتبره جديرا بالنشر .

وامضى مارتان دى جار ، بعد ذلك ، ثلاث سنوات في تحرير كتاب ممتع يستهوى القارئ اسماء : « جان باروا » . وعندما سلمه للنشر برنار جراسيه Bernard Grasset ، صاح هذا الاخير : « ما هذا « الدوسيه » الذي بين يدي ؟ اني اتحدى اى انسان يقرأ ١٠٠ صفحة منه . لا استطيع طبعه على مسؤوليتي ! » .

ونظرا لأن اديبا الشاب لم يتعود ، كما قلنا من قبل ، على ضروب التوسل والالتماس فقد اصبح في مأزق . انه متمسك بهذا الكتاب الذي بذل فيه جهدا كبيرا عميقا . واذا كان مشددا أو

غير مبال بمؤلفاته السابقة ، فانه كان حريصا على
«جان باروا» •

ماذا يفعل اذن ليجد الناشر المتفاهم ويرى
كتابه النور ؟ وفجأة حالفه الحظ ، حيث قابل في
سباح أحد الايام ، زميله في الدراسة، جاستون
جاليمار Gaston Gallimard الذى أصبح
مدير دار نشر كبيرة تساندها مجلة لانوفيل ريفو
فرانسيز « La nouvelle revue française
بدور هام فى حياة فرنسا الادبية حتى اندلاع
الحرب العالمية الثانية •

اقترح «جاليمار» على مارتان دى جار ان يسلم
رواية « جان باروا » لمحررى المجلة المذكورة •
وبعد ان قرأها اندريه جيد بعناية، أوصى بطبعها
دون أى تردد • فظهرت فى نوفمبر سنة ١٩١٣ •
كانت هذه الرواية تشبه المسرحية فى قالبها
وحوارها ، كما اشتملت على خطابات ومذكرات
ووثائق متنوعة اكسبتها فعلا شكل الملف
الضخم •

ان هذا الكتاب الذى يعتبر كما يقول دانييل
مورنيه Daniel Mornet « عرضا للحياة
الاخلاقية والاجتماعية المعاصرة » سحر شباب
العصر الذى انكب عليه والتهمه ، ذلك لانه
تناول مسائل شائكة ذات أهمية ، شغلت الاذهان
والقت فيها الاضطراب والغموض والقلق والبلبله ،
لما احتوته من علوم وعدالة وعقيدة ، ولا سيما
ما كان يدور فى هذا الوقت من جدال حاد بين
الاديب الكبير «اناتول فرانس» Anatole France
الذى وضع كل امله فى نفع العلوم للبشرية وبين
«بروتيتير» Brunetière الذى كان لا يعتقد
فى جدوى هذا الامل •

وعلق الناقد رينيه لالو René Lalou عن

الضجة الكبيرة التى أحدثها هذا الكتاب - الذى
استعرض مأساة شاب بورجوازي يعيش فى سنة
١٩٠٠ حائرا بين ايمانه بالسياسة وايمانه بالدين
- قائلا : « كان للخمسمائة صفحة التى تتكون
منها رواية « جان باروا » وقع بليغ واثر عميق
على جميع الشبان الذين قرأوها قبل يوليه سنة
١٩١٤ • فلقد أوضح روجيه مارتان دى جار ،
بسرود قصة « جان باروا » ، المشاكل التى كانت
تقلق بالنا وحواسنا ... وفجأة ، ظهر لنا كاتب
ناشئ ليعيننا على مجابهة ترددنا فى لذة مشوبة
بالمرارة ، وليرينا كيف نسوى منازعاتنا الداخلية
بروح اخوية » •

ألف روجيه مارتان دى جار ، بعد « جان
باروا » ، تمثيلية هزلية عن القرويين اسمها :
« وصية عم لولو » • وفى هذا الوقت ، تعرف
بالمخرج الكبير جاك كوبو Jacques Copeau
الذى كون وادار فرقة على مسرح «فيوكولامبييه»
Le vieux colombier وتوطدت أواصر الصداقة
بين الرجلين المحبين لفن الدراما ، وراح
«كوبو» يقرأ تمثيلية صديقه ويخرجها على المسرح
فى فبراير سنة ١٩١٤ ، معطيا دور البطل للممثل
التقدير « شارل دولان » Charles Dullin

وعندما قامت الحرب العالمية الاولى ، استدعى
مارتان دى جار الى الجيش ليعمل سائقا لعربات
نقل القوات العسكرية ، فشاهد الحرب عيانا •
وبعد الهدنة ، ارسل مع الفرق الفرنسية لاحتلال
منطقة الروور Ruhr • وهكذا وجد نفسه
مضطرا ، لعدة اعوام ، الى ترك اعماله الادبية •
ولما عاد الى حياته المدنية ، فكر فى كتابة « اسرة
تيبو » ، وأعد الاسس العامة لهذه الرواية •
اشتغل بهذا العمل الضخم من سنة ١٩٢٠ الى

سنة ١٩٤٠ • واراد خلال هذه الفترة نفسها ان يروح عن نفسه من غناء هذه المهمة التي ارهقته اكثر من مرة ، فالف مسرحيتي « المريضة بالاستسقاء » سنة ١٩٢٨ و « رجل صامت » Un taciturne سنة ١٩٣١ ، الى جانب قصة بعنوان « اعترافات افريقية Confidance africaine » سنة ١٩٣١ ، وكتب عفيف عن اخلاق وعادات الفلاحين الفرنسيين اسماء « فرنسا العتيقة » Vieille France سنة ١٩٣٣ وهو « مجموعة من الصور الدمية والقلوب الباردة والانفس الشرهة القاسية » كتبت بقلم لا يعرف الرحمة •• كما ظل ايضا يتابع كتابة يومياته •

وفي سنة ١٩٣٧ ، منحته الاكاديمية السويدية جائزة نوبل في الادب • وبعد عودته من السويد التي ذهب اليها ليتسلم مكافأته ، بدأ يكتب آخر فصل من روايته الضخمة التي انتهى منها في يناير سنة ١٩٤٠ •

وفكر روجيه مارتان دى جار ، في شتاء سنة ١٩٤١ ، في تأليف رواية جديدة كبيرة هي « ذكريات الكولونيل مومور » • فجمع كعاداته العناصر والمذكرات اللازمة لهذا الكتاب الذي يعتبر « وصية جيل غداة انشقاق كامل بين عصرين من عصور البشرية » • وبدأ الكتابة فيه ببطء وسط مشغوليته العديدة وتردده المستمر • وفي سنة ١٩٤٣ ، قرر تغيير ملامح الكتاب من ذكريات الى مجموعة قصص •

وعندما علم في السنة التالية من بعض اصدقائه ان الالمان قد وضعوا اسمه في قائمة المشبوهين الذين سيعقلونهم بمجرد نزول الحلفاء في جنوب فرنسا ، أثر الإقامة عند ابنته بمقاطعة « لوت » ، وفي سنة ١٩٤٥ ، حيث تركت الحرب

ويلاتها ومتاعبها وحالت دون استئناف مارتان دى جار نشاطه الفكرى ، كتب الى صديقه « جيد » يقول: « سنبدأ من الصفر! انها مسألة لا يتصورها العقل اذ لا يتحمل رؤية هذه الخرائب ، دون التأثير البالغ ، الا شاب فى الخامسة عشر من عمره ! انا الناجون من الموت ، نحن «نشاز» بين الأحياء ، قد امتلأت رؤسنا بأفكار عتيقة حتى اصبحنا مثل حراس المتاحف الاثرية • لم يبق لنا مقام فى المجتمع فاننا نجلس على عتبة الباب لنرى ركب الجبل الجديد يمر امامنا » •

وفي سنة ١٩٤٩ ، ماتت زوجة الكاتب. فكف عن كتابة يومياته التي بدأها ، كما سبق ان قلنا ، غداة الحرب العالمية الاولى • وفي سنة ١٩٥٥ ، ظهرت المجموعة الكاملة لمؤلفات مارتان دى جار بعد ان كتب « البير كامو » مقدمتها • وهى مكونة من مجلدين كبيرين وتحوى ذكريات ادبية وذكريات تتعلق بالاديب نفسه لم يسبق طبعها • ولكن ساءت صحته فى تلك الآونة ، حيث اصيب بالأم مفصلية وبالتهاب فى الغشاء الداخلى للارودة • وخلال صيف سنة ١٩٥٧ ، شعر بدنو الاجل ، فرتب اوراقه من مستندات ووثائق ، وحرر وصيته ، ثم سلم للمكتبة الاهلية مخطوطات ومذكرات وبعض مراسلات ويومياته على ألا تنشر الا بعد وفاته بثلاثين عاما • ولم يمانع فى طبع مراسلاته مع « جيد » و « كوبو » بعد وفاته مباشرة •

لفظ آخر انفاسه فى ٢٠ اغسطس سنة ١٩٥٨ على اثر ذبحة صدرية ، بالغا من العمر سبعا وسبعين عاما • ودفن بجوار زوجته فى مقابر «سيميز» Cimiez « بنيس » ، ولم يشهد دفنه الا عدد قليل من خلصائه ، حسب رغبته •

١ - روائى له « موهبة عجن الطبيعة البشرية » .

فى سنة ١٩١٨ ، عندما بدأت فكرة كتابة رواية « اسرة تيبو » تدور بخلد روجيه مارتان دى جار ، تسأل عن امكانياته واستعداده وقدرته الفنية ، ويقول فى ذلك : « يلوح لى ان قلمى لا يعبر عن افكاره ، ولكن عن احساس واخلاق واشخاص وكائنات بشرية ، وانى املك فعلا ذكاء مستمدا من الاحساس اكثر مما هو مستمد من العقل ، وانى روائى لا مفكر ولا مشتغل بعلم الاجتماع ، وانى محرك للمشاعر لا صانع افكار » .

وحتى كتابته رواية « جان باروا » ، عمد مارتان دى جار بطبيعته الى شحن مؤلفاته بالمضاربات المذهبية . كانت كل مسألة فلسفية أو سياسية او اجتماعية تشده اليها وتغريه . واشباعا لهذا الميل كان يلتهم الكتب ويجمع المذكرات ويكدس المواد وقصاصات الصحف والمجلات . وفجأة تبين له انه سيضل سبيله فى هذا الطريق ولن يصل الى الهدف المنشود . لقد فضل ان يكون روائيا يمتلك موهبة الحياة على ان يظل وراقا منعزلا فى برجه العاجى ، غارقا فى ملفاته ، وهذه الموهبة هى التى « قامت عليها شعلة فنه الخاص » .

وعلى اثر هذا الجدل الذى دار بينه وبين نفسه ، اتخذ قراره ووجد طريقة العمل التى تتساق مع استعداداته . عليه ان يهتم من الآن فصاعدا « بالكائنات » اكثر من « الافكار » . وعرف كيف يختار بين مايمكن ان يعطيه احساسه

الفنى بالملاحظات وما يمكن ان ينتجه من اكوام الوثائق المرتبة المبوبة التى يداوم الاطلاع عليها . ويقول فى ذلك : « يجب ان الاحظ اكثر مما اقرأ ، وأسير وارتحل واشعر وادخل كل مكان بدل غلق باب مكتبى على لاقص صفحات الكتب » .

وليس معنى هذا انه سيهمل او ينسى المشاكل المعاصرة المهمة ، والاحداث الدولية التى تشغل الافكار . كلا ! ويقول : « ان ما استقيه من الكتب وأقف عليه من تفكيرى فى الحياة ، فلن اضرب به عرض الحائط ابدا ، بل سأسرده فى مؤلفى لمجرد انه موجود بداخلى دون حاجة للبحث عن القصاصات التى ارفقها بهامش روائتى فتثقلها وترحمها » .

وعلاوة على ذلك ، قرر تعديل اسلوبه باعطائه قالباً جديدا : ترك الرواية ذات الحوار التى كان يتبعها عند نشره « جان باروا » - المليئة بالاقتضاب والتركيز - ليتجه نحو الرواية الكلاسيكية . اما اسلوبه فى الكتابة ، فقد ظل بسيطا مرنا شفافا كسابق عهده ، يجعلنا على اتصال دائم باشخاص القصة الذين اعطى لكل منهم لهجته الخاصة . وقبل بدئه بتحرير روائته فى مايو سنة ١٩٢٠ ، كان قد وقف تماما على حياة ابطاله وحياة الشخصيات الثانوية المتلفة حولهم . ويقول فى مذكراته : « كانت كل عناصر الرواية موجودة امامى قبل ان اشرع فى تأليفها » .

٢ - المراحل المختلفة التى مرت بها الرواية : تتكون « اسرة تيبو » من ثمانية فصول استغرقت احد عشر جزءا . الستة فصول الاولى لم تستند اطلاقا على وثائق تاريخية : تظهر الاشخاص بوضوح دون تأثير خارجى عليهم ،

دعته عربية ، ظل بعده طريق الفراش في المستشفى لمدة ثلاثة اشهر ، وقضى عدة اشهر اخرى في طور النقاهة ، جعلته يتأمل وهن الحياة وأصدر مارتان دي جار في سنة ١٩٣٧ الفصل السابع من « تيبو » في ثلاثة اجزاء ، تحت عنوان « صيف سنة ١٩١٤ » Eté 1914 ، بلغت صفحاته عدد صفحات الستة فصول السابقة من الرواية . ولا غرو ان اعتبر هذا الفصل رائعة ادبية ، استحق عليه الكاتب جائزة نوبل . وهذا نجد الروائي قد ازدوج بالمؤرخ : فالاحداث الواقعية تختلط بالاحداث الخيالية ، والتاريخ العام بالتاريخ الخاص حتى يشعر المرء ان المؤلف رأى الامور عن كثب وشهد مآسى الاحداث التي سببت الحرب العالمية الاولى .

وانشاء كلمة الشكر التي القاها مارتان دي جار في ستوكهلم يتساءل : « هل منحت جائزة نوبل لان كتبي هذه (صيف ١٩١٤) قد استطاعت باتسارها ، الدفاع عن بعض القيم المهددة من جديد ، والكفاح ضد عدوى الحروب ؟ » ثم عرض بوضوح الهدف الذي كان يرمى اليه : « حاولت خلال كتابة هذه الاجزاء الثلاثة ، ان اذكر الازهان بالجو الاوربي المضطرب غداة التعبئة لحرب سنة ١٩١٤ . حاولت اظهار ضعف الحكومات وقتذاك وترددتها وعدم حذرهما واطماعها الدفينة ، واجتهدت على الاخص في الكشف عن جمود الجماهير نحو السلام وهي تواجه تلك الكارثة التي راح ضحيتها تسعة ملايين من القتلى وعشرة ملايين من المشوهين . وأرجو ، من صميم قلبي الذي نهشه القلق ، ان تكون كتبي عن « صيف سنة ١٩١٤ » موضوع نقاش ، وان تذكر الجميع ، من شيوخ وشباب ، بدرس الماضي الذي يستحق الشفقة ، .

كما ان حياتهم الخاصة وصفت بتفاصيل دقيقة . وهم يعيشون في جو اهواء ومثل تضي على الكتاب مسحة اخلاقية واجتماعية وفلسفية سامية . والفصلان الاولان : « الكراسية الرمادية » Le cahier gris و « الاصلاحية » Le Pénitencier ظهرا في سنة ١٩٢٢ . ونرى فيهما اسرتين بورجوازيتين معاصرتين للقرن العشرين ، في كل منهما افراد يعملون من أجل تفككها وافراد يجتهدون في المحافظة على كيانها . ونرى ايضا تعارضا قائما بين اخوين : احدهما نائر على « الظلم الذي عم العالم » يهمة ان يسير وفق طبيعته دون اى تصنع ، والآخر يتمتع بذكاء ايجابي ، يميل الى الاستقرار ويعترف بان في كل انسان جانبا للخير وجانبا للشر .

وظهر الفصل الثالث من الرواية ، « ايام المتعة » La belle saison في سنة ١٩٢٣ في جزئين ، توقف ادينا بعده عن الكتابة لمدة خمس سنوات .

ثم ظهر الفصل الرابع والخامس من الكتاب تحت عنوان : « الاستشارة » La consultation و « الاخت الصغيرة » La Sorellina سنة ١٩٢٨ ، ثم قفاهما في السنة التالية : « بموت الاب » La mort du père . وهنا وجد الكاتب نفسه امام مصاعب في استمراره في عمله ، فاتجه الى تأليف بعض مسرحيات وقصص ، مجتهدا في الوقت نفسه في استكمال « تيبو » بتحرير « التأهب للسفر » L'appareillage الذي استغرق منه ثلاث سنوات ، ولكن اعتبره ، آخر الامر ، غير منسجم مع الفصول الاخرى ، فمزقه حتى تحتفظ الرواية بوحدها وتوازنها .

وفي هذه الاثناء ، وقع له حادث خطير حيث

ولكن للأسف ! لم يتعظ أحد بدرس الماضي هذا الذى يستوجب الشفقة وسالت دماء الناس مرة اخرى ! وفى الوقت الذى اندلعت فيه نيران الحرب العالمية الثانية ، انتهى مارتان دى جاز من الفصل الثامن والاخير من روايته والذى ظهر فى فبراير سنة ١٩٤٠ تحت عنوان : « الخاتمة » (Epilogue)

ملخص الرواية :

ولندخص الآن «تيو» مع التركيز بصفة خاصة على « صيف سنة ١٩١٤ » لانه اكثر فصول الرواية شدا للشعور وتأثيرا فى النفوس بلا مرأى . يتعرف القارىء بمجرد اطلاعه على الصفحات الاولى بأسرتين من اسر باريس ، احدهما كاثوليكية هى اسرة « تيو » ، والثانية بروتستانتية هى اسرة « فونتنان » Fontanin والاب « اوسكار تيو » رجل متكبر ، مشاكس ، مستبد ، يتمتع بعضوية المجمع العلمى وله يد طولى فى تأسيس عدة جمعيات اجتماعية ودينية ، أثر البقاء مترملا مع ابنه : « انطوان » الذى يستكمل دراساته فى الطب ، و « جاك » وهو صبي غير مستقر ، متهور فى الرابعة عشر من عمره . تخيم الكتابة على دار تيو : تقوم بالخدمة فيه سيدة مخلصة للأسرة تساعدوا قربة لها صغيرة تدعى « جيز » Gise يعاملها الاخوان كاخت لهما . والاب « فونتنان » رجل داعر ، والام متعبدة ، ولهما ولدان ، « دانييل » Daniel وله ميول فنية ، و « جينى » Jenny التى ظهرت عليها منذ الصغر حساسية يعتورها القلق والاضطراب .

وتقوم بين جاك ودانييل ، الطالبين بالليسيه صداقة حارة وشريفة ، ولكن تقع مراسلتها - فى الكراسى الرمادية - بين يد مدرسيهم ،

فيسيئون الظن بهما ويصبحان تحت التهديد بالطرد من المدرسة . دفع الظلم الباطل جاك الى ان يوحى الى صديقه بالهرب معه ليعيشا عيشة جديدة فى مكان غير هذا بعيدين عن الظلم . يصل الصديقان الى مرسيليا ولكنهما يضبطان ، فيعودان الى باريس . وبينما تغفر مدام فونتنان ، صاحبة القلب الرحيم ، ذلة ابنها ، يقرر « اوسكار تيو » وضع جاك فى «اصلاحية كروى» Crouy التابعة لادارته .

وبعد بضعة اشهر ، يقوم انطوان ، من باب القلق على وحيه ، باستقصاء الاخبار عنه ، فيعلم انه يعامل فى هذه الاصلاحية معاملة سيئة فد تكون لها عواقب وخيمة عليه خلقا وخلقاً . ولما لم يفلح فى استعطاف ابيه ، يرجو الراهب « فيكار » Vécard بصفته الرجل الوحيد الذى له نفوذ على الاب الطاغية ، ان يتدخل فى الامر لينقذ جاك من السقوط الذى يهدده . ويعود هذا الاخير الى باريس لاتمام دراسته ، ولكن يتردد بمساعدة انطوان الذى يسهر عليه ، على اسرة فونتنان التى يخشاها « اوسكار تيو » لمذهبه المخالف لمذهبه .

وبعد خمس سنوات ، يصبح دانييل من الرسامين المعروفين ، وانطوان طبيب امتياز فى احدى المستشفيات ، اما جاك الذى يبدو هادئا فى الظاهر ، فقد التحق بمدرسة المعلمين ، واندفع فى تيار الحياة بحماس ، ثم يقع فى هوى جينى التى يشعر ازاءها بحب مشوب بالحقد ، وان كان قلبه يخفق فى الواقع لجيز التى عاش وترعرع بجانبها . وأهمل اخوه الكبير رعايته لانشغاله بعشق امرأة شابة قابلها خلال زيارته الطيبة ولم يدم هذا الحب حيث تركته للحاق فى مراكز

بشخص كانت تحت تأثيره ولا تستطيع الافلات منه . وهكذا انقضت « أيام المتعة » !

وفى « الاستشارة » ، نجد انطوان طبيبا معروفا يعطى مهنته حقها ، يقضى حياته بين عمله وبين غرامه . ويصفه لنا الكاتب اثناء علاجه لعدة حالات طبية هامة بقدر ما هى فريدة فى نوعها ، منها ما يمس العلاقة بين الأزواج ، وبين الاقارب والاولاد ، ونجد « اوسكار تيبو » وقد هدمته الشيخوخة ، ضمن المرضى الذين يحاول انطوان شفاءهم . اما جاك فيختفى على اثر شجار عنيف مع والده ليلة التحاقه بمدرسة المعلمين ، مهدداً بالانتحار .

ويحتفظ لنا الفصل الخامس من « أسرة تيبو » بمفاجأة : لم ينتحر جاك ، بل حقق الهروب الذى كان يحلم به وهو فى الرابعة عشر من عمره . وامام حيرته بين حبيه ، وغضبه على ابيه الذى لم يوافق على زواجه بجينى البروتستانتية ، وعدم استعداده للانتظام فى مدرسة المعلمين ، أثر الترحيل الى تونس ، ولكن الحياة لم تبسم له فيها ، فسافر الى المانيا ومنها الى النمسا فايطاليا فمويسرا حيث اقام فى مدينة نوزان وانضم الى جماعة ثورية. تتكشف لنا هذه الاحوال شيئا فشيئا فى الوقت الذى يجد انطوان اخاه . فان نشر جاك قصته « الأخت الصغيرة » فى احدى المجلات السويسرية باسم مستعار يشف عن شخصية صاحبه ، سح بالثور عليه . فسافر اليه انطوان واقعه بالحضور الى باريس ليكون بجانب والده عند موته .

وما يعطى اهمية لهذا الفصل الخامس من « أسرة تيبو » هو اعادة سيرة « أيام المتعة » فى القصة التى كتبها جاك وسرد روجيه مارتان دى جار أجزاء منها فى رائعته الادبية . وفى هذه

القصة يحكى جاك حياته فى أيام الصبا ، فيتكلم عن نفسه وعن أبيه وعن حبه الموزع بين جينى وجيز . وهنا يبدو موضوع « أسرة تيبو » اكثر أهمية ، حيث يرينا الكاتب الحياة كما هى ، الى جانب الحياة كما نريدها ان تكون .

ويظهر كل من انطوان وباك فى صورتها الحقيقية ، فقفا على ما يميز طبيعة كل منهما : انطوان الرجل الموفق الذى يجد فى الحياة الواقعية كل ما يشبع رغباته ويحقق نجاحه ، وباك الفنان الثائر على الاوضاع والاسس القائم عليها المجتمع . وتظهر مهارة مارتان دى جار فى مجهوده لسبر الحياة التى تقوم على الاستسلام ، والحياة المتعطشة الى الانطلاق .

وعندما عاد أنطوان من لوزان ، وجد صحة والده متدهورة وبلغت آلام احتضاره حدا دفع ابنه على حقنه بالمورفين . وحاول انطوان ان يحكم على والده حكما عادلا أثناء سيره فى جنازته . وكشف له بحثه فى اوراق المتوفى عن جوانب من سيرته لم يكن يتوقعها : يلوح ان حياة « أوسكار تيبو » كانت نضالا خفيا مستمرا ضد الكبرياء ولكن بدون جدوى .

علمت جيز نبأ الوفاة ، فجاءت من لندن لتساطر أنطوان حزنه . وكم كانت دهشنا وفرحتها عندما رأت جاك على قيد الحياة لاعتقادها بانه انتحر . ولكن فرحتها لم تجد صدى لدى جاك الذى أصبح غريبا بالنسبة لها وللآخرين . فهل اصبح كذلك ام كان هكذا دائما ؟ ويقول الكاتب : « لم يشعر جاك فى أية فترة من فترات حياته بالاستقرار الذى كان يتمتع به انطوان . كان يجد نفسه غريبا فى كل مكان ، فى افريقيا وايطاليا والمانيا ، وفى لوزان اكثر من أى بلد

آخر • لم يشعر بالغبرة فحسب ، بل كان مطارداً ، مطارداً من ذويه ، مطارداً من المجتمع ومن ظروف الحياة ، مطارداً من نفسه بشئ لا يدري كنهه • ويشعر باختناق في جو بيت والده المتوفى ، فيعود الى سويسرا ...

« وصيف سنة ١٩١٤ ، هو موضوع الفصل السابع من « أسرة تيبو » • وبدأ في ٢٨ يونيه سنة ١٩١٤ في الوقت الذي اغتيل فيه ولي عهد النمسا والمجر وينتهي في اليوم التاسع من الحرب العالمية • ويطلع القرى يوماً بيوم في الاجزاء الثلاث على كفاح قوى السلام غير المنظمة ضد قوى الحرب التي ستدلع نيرانها •

ونجد جاك في جنيف على اتصال وثيق بجماعة من الثوريين الدوليين الذين يحاولون عمل كل ما في امكانهم لتجنب أوروبا الخراب والدمار • ويتكون هؤلاء النوار من رجال الفكر والطلبة والعمال والرسمين • وبالرغم من الحياة العسيرة التي يعيشونها ، فان ايمانهم القوي يعينهم على اداء رسالتهم في اوقات المحنة • اما رئيسهم ومستشارهم ، فرجل غريب يدعى « مينستريل » Meynestrel كان طياراً ومهندساً ميانيكياً ، ترك الطيران ومدينة جنيف على أثر حادث وقع له ، فزار أوروبا الشرقية وتسنى له الاتصال ببعض الزعماء الثوريين ، ثم عاد الى سويسرا « طلباً للهدوء » على حد قوله • كن يقضى ساعات النهار في المكتبات لاختذ المذكرات عن مؤلفات أصحاب المذاهب الثورية ليزيد في ثقافته السياسية •

وفي يوم من الايام اصططحه مناضل من سكان جنيف الى مقر الشبان الثوريين الذين اعجبوا بقوة شخصيته ، فاخثاروه رئيساً لهم • ويقول

مارتان دى جار : « كان مينستريل خلال الاجتماعات ينصت في صمت الى المناقشات ولا يسرع في الادلاء برأيه ، ثم يقطع الحديث من وقت لآخر بكلمات مبهمة مائعة مثل : « المسألة في حاجة الى التفكير » أو « في حاجة الى النظر » وكانت حدة نظراته وخشونة صوته تسترعبان حتى انتباه أولئك الذين يظهرون استمزازهم من لهجته القاطعة » •

ويرى مينستريل ان الثورة الشعبية لا يمكن ان تكون ذات فاعلية الا اذا ارتكزت على « حالة ثورية » مهد لها من مدة ، طلباً للنجاح المنشود • وهو لا يعتقد في استطاعة الاشترايين خدمه قضية العمال ومنع الحرب بالحث على الاضراب العام ، وهو صعب التحقيق على كل حال في جميع الدول الاوربية الكبيرة انما تولد الثورة في نظره وتنهار الرأسمالية من الحرب نفسها ومن حالة الفوضى التي تتبعها ثم نرى فيما بعد مينستريل وقد حصل على مستند هام يدين القيادة النمساوية - الالمانية ، فيقول في نفسه : « ان عرضه على الرأي العام يبطل الحرب بينما الحرب هي غرضنا الاول • لترك ذلك الامر اذن • وحتى اذا فرضنا وجود فرصة تحول دون وفوخ الحرب بنسبة واحد في المائة ، فيجب ان نستبعدا » • ثم يحرق المستند تاركا هكذا ملايين الناس يذهبون الى الموت من اجل اصلاح غير مضمون للمجتمع •

ونشهد في بداية « صيف سنة ١٩١٤ » نقاشاً هاماً بين مينستريل والمناضل النمساوي الواقعي « ميتورج » Mithoerg الذي يرى ان جميع الوسائل صالحة للقضاء على الرأسمالية وانتصار الثورة ، وذاك المناهض لكل عنف ، المحب لزملائه

الشعوب ، مهما كانت وحشيتها لا تحتاج الى تبرير .

فقاطعه جاك في لهجة تهكمية :

- حسب رأيك ، الوسائل لا تهم !

فيفرز ميتورج رأيه قائلا :

- بالضبط ! ان الثورة تأخذ الانسان من خناقه . المهم في الثورة هو الانتصار ! فالهدف ، بالنسبة لى ، ليس الانتقام . لا ! الهدف هو تحرير الانسان ، ورغم انه ان لم الامر ! باطلاق الرصاص ان لم الامر ! بالمقصلة !... اذا كان لا بد من استعمال الظلم واذا كان لا بد من الوحشية ، اذن فأنا الظالم وأنا الوحش ! كل سلاح ينفعى طالما انه يحقق لى كسب المعركة . واقول فى مثل هذا النضال : كل شيء مباح ! كل شيء ، كل شيء على الاطلاق - ما عدا الهزيمة !

فيقول جاك فى حماس :

- لا ! لا ! لان هذا العنف الذى تنادى به ، انما هو تهديد فى الوقت نفسه للمجال الادبى !

فيفصح ميتورج :

- ليكن ! لا يجب ان تشل شكوك المفكرين حركتنا . اذا لزم القضاء على ما تسميه بالمجال الادبى لمدة نصف قرن ، فليكن !..

فيقول جاك فى عصبية :

- لا ! ان الثورة التى تقوم على الظلم والكذب والقسوة لن تكون بالنسبة للبشرية الا انتصاراً كاذباً . ان مثل هذه الثورة تحمل فى نفسها عناصر هدمها . والمكاسب التى يحصل عليها بمثل هذه الوسائل ، سر تدوم ، اذ سوف تتلاشى

فى النضال ولكنه يغيب عليهم ضيق التفكير المشوب بالحقد . ونرى من المفيد ذكر زبدة هذا النقاش لانه يدور حول موضوع له خطورته ، ولان بطل الرواية يترجم هنا بايضاح فكرة الكاتب بلا شك .

يقول جاك : « فى نظر كثير منا ، أليست الثورة اشباعاً ، لروح الانتقام التى تنتشى من رؤى الاضطرابات والمشاحذات والحرب الاهلية والاستيلاء على السلطة بالقوة ، اكثر من انها عمل يهدف الى تغيير الأوضاع الاجتماعية ؟ بالنسبة التى تتابنا عندما يحين يوم الانتقام ، عندما نستطيع بدورنا فرض طغياننا من خلال انتصار تسيل فيه الدماء ونسميه عدلاً . من منا يجترى ويدعى انه افلت من عدوى التخريب المغرية هذه ؟ .. يلوح ان الانسان لا يستطيع الانضمام الى طائفة المساهمة مع جماعة او مع الجماهير الا اذا ترك قيمه .

ويسأل النمسوى :

- اية قيم ؟

فيرد جاك :

- قيمه كرجل ، كبشر .

ويقول فيتورج :

- انك يا جاك لا تفهم شيئاً فى السياسة ؟

ويتدخل مينستريل قائلاً :

- وما هو الفهم السياسى ، يا ميتورج ؟ أليس معناه أن تقبل استخدام طرقاً فى الكفاح الاجتماعى تعتبرها اجراماً وعملاً غير مشرف نسمئ منه او حدث فى الحياة الخاصة ؟

فيفصح ميتورج :

- ان الثورة الحقيقية ، الثورة من أجل انقاذ

بدورها طال الزمن عليها ام قصر ... ان العنف سلاح الظالم ! ولن يحقق للشعوب التحرير الصحيح ، بل يأتي بظلم جديد ... انى وانق بان التقدم الحق لا يقوم على وسائل رخيصة . فالاشادة بالعنف والحقد لنشر العدالة امر لا يستسيغه العقل ، لانه خيانة لتلك العدالة ولتلك الاخوة المراد نشرها على العالم ... ان الثورة الحققة فى نظرى ، الثورة التى تستحق بذل النفوس اجلها ، لن تتم ابدا اذا تكررنا للقيم الخلقية !

فيقول مينستريل بصوت حاد :

- قيم فردية ، قيم انسانية ! هل تعتقد ان هذين المصطلحين يحملان المعنى نفسه ؟

ويتساءل جاك اذا كان فى استطاعته - مثل زملائه الميالين للكفاح أكثر منهم للرحمة الانسانية - التخلّى عن ضميره وتذويب فكرته وارادته فى مذهب تجريدى أو فى عمل مشترك داخل حزب . اذا كان لديه شك فى ذلك ، فهو لا يشك فيما هو مطابق للمنطق ، ولهذا يقول : « اريد ان تقبل الثورة فى صفوفها رجلا أحرارا يكافحون من اجل ما يعتقدونه عدلا ، ضد ما يعتقدونه ظلما » . ثم يؤكد : « ان الثورة هى احساس شخصى ، الرجل التأثير هو الذى يثور على نفسه أولا ليتخلص من العادات البائدة ... يجب ان تكون الثورة شيئا آخر غير انتصار طبقة مهما كثر عدد افرادها ومهما هضم حقها . انى اريد انتصار نظام عام ، نظام انسانى بمعنى الكلمة » .

ويكلف مينستريل جاك بان يجوب اوربا بحثا عن الاغراض السياسية الخفية لدول وسط اوربا ، ثم يبعثه الى باريس ليتابع عن كثب رد الفعل

الفرنسى وموقف الاشتراكيين ازاء دعاة الحرب . ويجد جاك شقيقه يعيش هنيئا فى حياته البورجوازية ، غير مكترث بالتهديدات التى تترامى على العالم . ويستمر الصدام بين طبيعتى الاخوين طيلة شهر يولييه سنة ١٩١٤ الى جانب الازمة الدولية .

ويصرح انطوان لجاك : « انا لست بالرجل الذى يتدخل فى أحداث العالم ! انا عندى عملى المحدد . يجب ان اكون غدا فى الثامنة صباحا بالمستشفى ... كل يوم اجد نفسى امام عشرين طفلا بائسا ، على ان انقذهم من البلاء الذين هم فيه ! اذن اقول : كلا ، لكل ما يخرج عن عملى ! ... انا عندى مهنتى . على ان أحل مشاكل دقيقة معينة تتعلق بعملى ولها مساس عادة بمستقبل حياة انسان او باسرة فى بعض الاحيان . أفاهم انت ؟ عندى واجبات اخرى تحول دون اهتمامى بجس نبض اوربا !.. وحتى على فرض ان الاخطار التى تذكرها صحيحة ، فليس فى امكاننا عمل أى شئ ، اى شئ ، لا انا ولا انت ولا أى انسان ! » وأمام اشمزاز جاك من موقف أخيه السلبي واستمراره فى عمله دون الاهتمام بالكارثة التى تهدد العالم ، أضاف انطوان فى علباء وبلهجة قاطعة : « تأمل الحياة ، هل لها من فائدة ؟ ليست الحياة الاهتمام بكل المشاكل ... الحياة هى التضال . الا تعتبر أداء كل انسان لواجبه بعناية شيئا ذا قيمة ؟ فلنترك الحياة اذن تسير فى مجراها » ...

ان قبول الحالة الراهنة فى استسلام بينما يغشى الظلم جماهير العمال الثائرة الموزعة جهودها ، غير المنظمة ، أهاجت حفيظة جاك ، فصاح : « لا ! ان العالم الرأسمالى لا يمكن الدفاع عنه ! لقد أوجد بين الناس علاقات لا يقبلها العقل ، خالية

من كل انسانية ! انه عالم زيفت فيه القيم، لاماكان فيه لاحترام الشخصية ، كل همه محصور في المصلحة الخاصة ، وفكر كل فرد فيه متجه الى الاثراء ! عالم تسيطر عليه القدرة المالية بقوتها الوحشية وتتش الرأى العام بواسطة الصحافة المأجورة ، وتستعبد الدولة نفسها ! عالم لا قيمة فيه للفرد ولا للعامل !... » .

ولكن كل هذا سيتغير فى اعتقاد جاك ، فهو واثق بالمستقبل ويضع تفاؤله فى مواجهة تشاؤم اخيه : فيقول : « ان التطور نحو الاشتراكية حقيقة عامة ، واضحة للعيان ، وستعتمد النصر النهائي مصاعب ، وربما لا يتم ، للأسف ، الا بآسلة الدماء ، ولكن اولى الابصار يعتقدون من الآن فصاعدا ان النصر لا محالة واقع . وفى نهاية الامر سيعم العالم النظام الاشتراكي » .

ولا شك ان لهجة الكتاب تدل على ان المؤلف ينصر جاك . ولكن كلا منهما يتساءل فى صراحة : هل النظام الاجتماعى الجديد سيجدد الانسان ايضا ، وهل سيجعل منه مثالا للبشرية أكثر كمالا ؟ انهما يرجوان هذا دون تأكيده . فتغير نظام الحكم لا يكفى ، اذ لا بد فى الوقت نفسه من تغيير العادات المردولة فى الفرد . فالعمل السياسى يجب ان يسير جنبا الى جنب مع مكارم الاخلاق . وينتهى جاك الى القول آخر الامر : « لا انكر الغرائز السيئة الكامنة فى المرء ، وانما اظن - واريد ان اظن - ان هذه الغرائز ليست وحدها الكامنة فى الانسان . اعتقد ان النظام الاقتصادى الحالى يمنع نمو الغرائز الطيبة وتغلبها على الغرائز السيئة . وان من حقنا وضع آمالنا فى رؤية الانسان وقد نمت خصاله الحميدة فى حرية تامة ، » .

وانتحرار الاب فوتانان يقرب اسرته من اسرة تيبو ، ويشعر جاك بشيء لا يستطيع مقاومته يدفعه الى تبرير نفسه امام جينى .

طالباً منها الصفح عنه لأنه هجرها مدة طويلة دون سبب . وتتهاد جميع العقبات التى كانت تقف حائلا بينهما ويعترف كل منهما للآخر بحبه . ومنذ هذه اللحظة تشارك الفتاة حياة جاك المضطربة الى جانب بقية الشباب الثورى والحزب الاشتراكي . وتخوض معه المظاهرات الشعبية ويشهدان معا اغتيال الزعيم الاشتراكي « جان جوريس » . وتتلاشى احتمالات منع الحرب العالمية : فالقتل الذى منى به كل من الحياض المطلق تجاء النزاع بين النمسا والصرب ، وبالاضراب العام الوقائى ، والثورة الجماهيرية الى جانب ضعف الزعماء الاشتراكيين فى مختلف دول اوربا ، وسيطرة روح الانتهازية عليهم وتراخى رابطة العمال الدولية وترددتها ، وجود الطبقات المتوسطة وقبولهم النزاع العالمى دون تفكير - كل هذا منع الثورة العمالية من التغلب على الحرب الامبريالية التى اندلعت نيرانها ودفعت ملايين البشر الى اتونها . وينقبض قلب جاك وجينى عند قراءتهما على حوائط وجدران باريس الامر الذى يعلن التعب العامة .

قررت جينى ، وقد اصبحت خدينة جاك ، اللحاق به فى سويسرا حيث صمم على استئناف الكفاح ضد قيام الحرب بشتى الوسائل . ولكنها تشعر فى آخر لحظة ، بانها لا تستطيع ترك والدتها فى هذه الساعة الحرجة ، وترجى سفرها . ويصل جاك الى جنيف بمفرده . وان تمسكه بالمثالية امام الحرب المشتعلة، جعله يضحي بنفسه تنفيذا لمشروع خيالى بقدر ما هو جرىء ، يرى فيه انه اول واجب عليه وآخر وسيلة تخدم

السلام والثورة : وهو ان يستحلف في رسالته ، جنود المعسكرين المتنازعين بالقاء الاسلحة والتآخي قبل ان تبتلع دوامة الحرب اوربا كلها . اذ رأى « ان النصر الذى لم تحرزه رابطة العمال الدولية قبل التعبئة ، قد يمكن احرازه اليوم » .

ويحرر رسالة في هذا المعنى بحماس ، ويترجمها الى الألمانية ، وهو يعلم ان مغامرته الجنونية هذه ستقضى على حياته . ولكن لا بأس ! فهو يتحرق شوقا الى التضحية . ولا يعتبر الموت الذى ارتضاه عدولا عن مبدئه ، وانما ازدهارا لمجتمع افضل ، فهو موت بدافع العقيدة في صورة احتجاج الثائر على هذا العالم الاحمق . انه عمل فدائي يحمل الطابع والدليل اللذين أرادهما من وراء فكرته هذه .

وفي فجر ١٠ أغسطس سنة ١٩١٤ ، يركب جاك طائرة يقودها مينستريل ليحلق بها فوق جبهة الالزاس Alsace ويلقى على المتحاربين ملايين المنشورات التى تدعو الى السلام . وتقلب الطائرة وتشتعل وتقع وسط الخطوط الفرنسية . ويموت مينستريل حرقا بينما يصاب جاك بجراح بليغة ويعتقل كجاسوس . ولكن حملته على نقالة والسير به وقت عملية تهقر القوات على وجه السرعة ، عرقل تراجع الجيش ، فاطلق عليه احد الجنود رصاص مسدسه فارداه قتيلا ، ثم صاح مبررا تصرفه : « ما هو الا رمة قدرة ! »

ان ما يستحق الملاحظة في جاك تيبو ، هو احتجاجه الصارم ضد تفاهة الحياة : فالنفس اما ارهقتهم العبودية التى عاشوها القرون الطويلة ، واما اعتمدتهم المبادئ البالية . لقد افلست الحياة ولا بد من تغييرها ، « لا بد من وجود نظام جديد يختلف عن النظام الذى اعتاده المجتمع ، لا يجد

المرء فيه معاشه فقط ، بل اكثر من ذلك : متاع الحياة ! لا يجب اعطاء الفرد فيه نصيبه المادى من ربح العمل فحسب ، بل يضمن له ايضا نصيبا من الحرية والراحة والرفاهية لا يستطيع بدونه ان ينمو في ظل الكرامة الآدمية » .

والفصل الاخير من رواية مارتان دى جيار : « الخاتمة » مركز كلية على انطوان تيبو . فبعد ان منح الكاتب مثاليته الانسانية جاك مع شيء من التحفظ ، منح انطوان ما عنده من تشكك ومن تجربة علمية حسب نظريته للحياة .

وخاض انطوان الحرب كطبيب في الجيش ، ثم اصابه الغاز الخانق في سنة ١٩١٧ ، فنقل الى مصحة بجنوب فرنسا . انه يتألم ولكن لا يتململ . واستشف بعد زيارته لاساتذه الدكتور « فليب » بانه لا امل في شفائه . ويتناول الكتاب الستة اشهر الاخيرة من حياة انطوان حيث يدون في يومياته تقدم احضارته والافكار التى اوحى له بها الموت أو الحرب .

والوضع الاجتماعى الذى يتبناه امام المتناقضات المذهبية المنتشرة في العالم ، يتلخص في تأكيده للفردية اذ يقول : « ان كل اجابة قريبة من المنطق ، عن الاسئلة التى تخطر على بال الانسان ولا يصل الى حلها بمفرده ، تكون بمثابة ملجأ له ، لا سيما اذا وافق عليها أغلبية الناس . وهذا خطر عظيم ! .. ان القلق والارتياب خير من راحة البال الخاملة التى يمنحها اصحاب المذاهب للمتضمنين اليهم . وان محاولة فهم الانسان لنفسه ليس بالشيء السهل ، ولكن ضرره اخف من اى ضرر آخر » .

وتصدى جزء كبير من « الخاتمة » لمصير عائلة « فوتسانان » : فالام اسست مستشفى

بها الانسان على كاتب منذ وفاة تولستوى هي :
الجودة » •

ان روجيه مارتان دى جار يضع على لسان
احد اشخاص روايته ما يدور فى ذهنه : « يجب
على الانسان الا يتكلم عن نفسه ، ولكن لايتسنى
هذا الا اذا ضمن ان اناس آخرين سيدكرونه
بطيب الحديث » •

كان مارتان دى جار يستكشف من استعراض
علمه وادبه وثقافته واحاسيسه • وعلى كل، فاذا
فضل العزلة والانطواء طيلة حياته ، فان كثيرين
غيره قد تكلموا ولا يزالون يتكلمون وستكلمون
عنه بحماس وعرفان واعجاب ، بصفته مثالا حيا
المولاء ، وعن مؤلفاته بصفته نموذجا أدبيا عاليا
رائعا •

وكرست حياتها لخدمة جرحى الحرب ، وابنتها
دانييل اصاب بتشوه منه من بناء اسرة ، وابنتها
جينى رزقت بمولود من علاقتها القصيرة بجاك
تيو • وأخيرا يموت انطوان بعد اعلان الهدنة،
واضعا آماله التى لم يستطع تحقيقها ، فى هذا
المولود ، الوريث الوحيد للأسرتين اللتين شهدنا
فصلتهما •

وعلق جاك برينر Jacques Brenner على
هذه الرائعة الادبية بقوله : « مهما قرأ الانسان
الروايات ، فيظل أبطال « أسرة تيو » احياء عند
آلاف القراء وقرييين منهم اكثر من قرب اى
شخص حى لهم » •

وابدى « الير كامو » تقديره قائلا : « ان
احسن كلمة توصف بها هذه الرواية ويضن